مجلة كلية العلوم الإسلامية
المجلد السابع | العدد (1/14) | 1434هـ - 2013م

الصوفيون والتصوف في المغرب العربي حتى القرن الرابع

أ.م.د.لمياء عز الدين الصباغ(*)

ملخص البحث

لا شك أن كل مظهر من مظاهر الحركة الفكرية في أي بلد إسلامي طبعت بالطابع الديني عبر التاريخ ، وقد بدا هذا الطابع يتمكن شيئاً فشيئاً من إطار الإسلاميات ليأخذ اتجاهاً علمياً في الجملة . فالتصوف المغربي جزء من التصوف الإسلامي العربي لما خلفه من النظريات الصوفية المغربية ومن الآثار العميقة في الأفكار الصوفية المشرقية، فالمغرب العربي خلال العصور الأولى من حروب التحرير العربية ظل بعيداً عن الانحرافات العقائدية والبدع التي شوهت الدين الإسلامي. فكانت العبادة ، وتلاوة القرآن الكريم وسرد الأحاديث النبوية الشريفة شغلهم الشاغل إلا أنه حصل تداخل لبعض العناصر بالنظريات والأفكار الشاذة التي كانت تعصف بالشرق لأن أهل المشرق كانوا سباقين في المناظرات وذلك لوجود التيارات والمذاهب البدعية .

Mystics and Mysticism in the Maghreb until fourth century

Dr. Lamia Iznddin Al-Sabbagh

ABSTRACT

There is no doubt that every aspect of the ideological movement in any Islamic country is coloured by the religions nature a cross history. This colour has been gradually dominating the Islamic thought towards a scientific nature in general .

Sufism in the western part of the Arab word is part of the Arab Islamic Sufism due to the western Sufi theories it bequeathed and the

---

(*) أستاذ مساعد في قسم التاريخ،كلية الآداب،جامعة الموصل.

profound effects on the eastern Sufi thought . During the early times of the liberation wars the Arab west stayed clean of any dogmatic derivations and heterodoxies that distorted Islam . Worshiping and recitation of the clorious Quran and Prophetic Tradition (Hadeeth) was the central activity until some strange theirs started to appear here and there because the people of the east were the first to hold debates because of the sum of heterodox waves and creeds .

المبحث الأول

تعريف التصوف :

قبل الحديث عن الصوفيين لابد أولاً أن نستعرض ما قيل عن التصوف في بعض المصادر العربية .

التصوف لفظة اختلف المفكرون في أصلها قال القشيري (ت465هـ) في رسالته القشيرية ((اعلموا رحمكم الله أن المسلمين بعد رسول الله (ﷺ) لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية سوى صحبة رسول الله (ﷺ) إذ لا فضيلة له فوقها فقيل لهم الصحابة ، ولم أدركهم أهل العصر الثاني تسمى من صحب الصحابة التابعين ، ورأوا ذلك أشرف سمة ثم قيل لمن بعدهم أتباع التابعين ثم اختلف الناس وتباينتا المراتب فقبل خواص الناس – ممن لهم شدة عناية بأمر الدين – الزهاد والعباد ، ثم ظهرت البدعة وحصل التداعي بين الفرق فكل فريق ادع وا أن فيهم زهاداً ، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله سبحانه وتعالى ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة)) [أ] .

وعرفه ابن خلدون بقوله ((هذا العلم – يعني التصوف – من العلوم الشرعية الحادثة في الملّة – وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية ، و أصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله ، والأعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف ، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختفى المقبلون على العبادة ب اسم الصوفية

والمتصوفة)) ويقول ((هو محاسبة النفس على الأفعال والتروك والكلام في الأذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات ، ثم تستقر للمريد مقاماً يترقى منها إلى غيرها ، وللصوفية آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم ، إذا الأوضاع اللغوية إنما هي للمعاني المتعارفة فإذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف اصطلح على التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه ، فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس يوجد لغيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه)) ( ) .

وعلى كل حال فالتصوف لدى القشيري وابن خلدون لا يبدو لنا علماً مستحدثاً وجديداً ، وإنما مأخوذ من سيرة الرسول (ﷺ) ، وصحبه كما انه ليس مشتقا من أصول لا تمت إلى الإسلام بصلة كما يزعم بعض المستشرقين الذين ابتدعوا أسماءً مبتكرة لاسم التصوف ، إذ ربطوا الفكرة الصوفية الإسلامية بالتصوف البوذي والهندي والأفلاطوني والنصراني والفارسي ، والقصد هو تشويه لفظة التصوف وجعلها فلسفات قديمة وضالة[Ñ] .

ويؤكد حاجي خليفة ما ذهب إليه القشيري في رسالته القشيرية من أن كلمة التصوف ظهرت للمرة الأولى نهاية القرن الثاني للهجري إذ يشير بقوله ((ثم ظهرت البدعة وحصل التداعي بين الفرق فكل فريق ادعوا إن فيهم زهاداً ، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله سبحانه وتعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف ، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة)) [Ò] .

ويمكن القول إن التصوف منذ بدايته نشأ باتخاذ الزهد في الدنيا ، وزينتها والإقبال على الطاعات والاستزادة منها على الآخرة والعمل لها ، وهذا ما دعا إليه القرآن الكريم والسنة النبوية وسيرة الصحابة والتابعين الذين كانوا ازهد الناس للحث على الدعوة الخالصة للإسلام .

إن كلمة التصوف ظهرت في القرن الأول الهجري بدليل ما روي عن الحسن البصري الذي يعد من كبار أئمة التصوف (21هـ –110هـ /642م–728م) انه قال : رأيت صوفياً في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه وقال (معي أربعة دوانيق[Ó] فيكفيني ما معي[Ô]) وقال

أيضا (أدركت سبعين بدرياً كان لباسهم الصوف) [Ö] كما روى عن سفيان الثوري وهو إمام في الحديث والتفسير (97هـ-161هـ/715م-778م) انه قال (لولا أبو هاشم الصوفي [*] ما عرفت دقيق الرياء) [Ö] فضلاً عن قول أبي موسى الأشعري (42هـ/622م) في وصفه للرسول (ﷺ) ((انه قال كان يلبـــس الصوف ويركب الحمار ، وقال أيضـــا (يا بني لو رأيتنا ونحن مع نبينا (ﷺ) إذا أصابتنا السماء وحدث منا ريح الضمان من لباسنا الصوف)) [×] .

نشأته ، وتاريخه وتطوره

إن التقصي عن الصوفية لم يقصد كل ما قيل أو كتب عنه ، أو ما كتبه الصوفية عن أنفسهم ، فالإسلام دين البساطة ودين الفطرة التي فطر الناس عليها انزله الله على قلب المصطفى (ﷺ) هداية للبشرية قال تعالى ((هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)) [آآ] فالصوفية اسم أطلق عليهم واختلف في أصله وفي مصدر اشتقاقه (أي اشتقاق كلمة صوفي فيشير الكلاباذي (ت 380هـ/990م) إلى سبب تسمية الصوفية ، (سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها ونقائها ، وقال بشر بن الحارث الصوفي إن الصوفية من صفا قلبه لله . وقال بعضهم الصوفي من صفت لله معاملته فصفت له من الله عز وجل كرامته ، وقال قوم إنما سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل 000 وقال قوم إنما سموا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة الذين كانوا على عهد رسول الله (ﷺ) ، وقال قوم إنما سموا صوفية للبسهم الصوف ويضيف الكلاباذي أما عن نسبهم إلى الصفة والصوف فانه عبر عن ظاهر أحوالهم وذلك أنهم قوم قد تركوا الدنيا فخرجوا عن الأوطان وهجروا الأخدان وساحوا في البلاد وأجاعوا واعروا الأجساد لم يأخذوا من الدنيا إلا ما لا يجوز تركه من ستر عورة وسد جوعه) [آآ] .

وعلى اصح الآراء في تسمية الصوفية ما أشار إليه أبو نصر السراج الطوسي (ت378هـ/988م) بقوله " نسبوا إلى ظاهر اللباس ، ولم ينسبوا إلى نوع من أنواع العلوم والأحوال التي هم بها مترسمون ، لأن لبس الصوف كأن دأب الأنبياء عليهم السلام ، والصديقين وشعار [المساكين] المتنسكين " [آ] ويضيف السهروردي حول نسبتهم إلى " للبسه تنبئ عن تقللهم من

الدنيا وزهدهم فيما تدعو النفس إليه بالهوى من الملبوس الناعم 000 فالقول بأنهم صوفية للبسهم الصوف أليق واقرب إلى التواضع " (ĩÑ) .

وللصوفية أسماء مختلفة منها :

- **الزهاد** : لأنهم زهدوا وتركوا الدنيا تماماً وما فيها من مباهج ولو كان بهم خصاصة الفقراء لحاجتهم إلى الله سبحانه وتعالى .
- **الغرباء أو السائحون** : لأنهم يسيحون ويتجولون في الأراضي الواسعة كالبراري والقفار لعبادة الله سبحانه وتعالى .
- **الجوعية** : لأنهم لا يأكلون إلا بقدر ما يسد رمقهم ويعينهم على طاعة الله عز وجل " والجوعية تسمية لأهل الشام " .
- **المرابطون** : مشتق من اللفظ المغربي مرابط أي الذي يعيش عيشة الزهد والنسك في الرباط(ĩÒ).

وكل هذه الألفاظ تدل على الأشخاص الذين تركوا الأوطان ولزموا الأسفار والترحال والانتقال من وطن إلى آخر وتخلوا عن الدنيا ، وعزموا النفس عن مباهج الحياة .

وأما المتصوفة فتأتي بمعنى " أهل الخصوص الذين باينوا الناس وانحازوا عن جملة الناس بترك المكاسب وقطع العلائق ، وانقطعوا إلى الله عز وجل وعرفوا بالله ونسبوا إلى الله ، فلا يسعهم التخلف عن استعمال الآداب ، والاهتمام والتكلف لأحكام الصلاة ، وتحويزها ، وأحكام فرائضها وسننها وفضائلها ونوافلها وآدابها لأنهم ليس لهم شغل غير ذلك ، ولا ينبغي أن يهمهم أمر أكثر من اهتمامهم بأمر الصلاة " (ĩÓ) .

التطور التاريخي لمذهب التصوف

وردت كلمة التصوف منذ القرون الأولى للميلاد إذ كان زعيم الوراقين " ابيكنت " الزاهد الذي أفتى حياته وعمره في رواق فارغ فوق حصير فقد أثرت تعاليمه الزهدية في الإمبراطور " مارك اوربل " فتصوف وتنسك فضلاً عن الإغريق القدامى الذين أعرضوا عن مباهج الحياة ونعمها وقصدوا الزهد والتقشف ومن أشهرهم " ديوجين الكلبي " الذي كان يحمل مصباحاً في

النهار مما جعل الناس تلحق به مستهزئين ، فإذا ما سألوه عن من تبحث فيجيبهم أبحث عن الإنســــان[ïÕ] ، وفي عصر ما قبل الإسلام عرف العرب الزهد بأشكاله المختلفة كالرهبنة ، وحياة الأديرة وغيرها [ïÕ]، وفي كلمة لابن الجوزي (ت 597هـ/1200م) عن التصوف في الجاهلية يقول :

يأتي رجل صوفي " يقال له صوفه واسمه الغوث بن مر فانتسبوا إليه لمشابهتهم إياه في الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى فسموا بالصوفية " [Öï] ،فكان يطوف الكعبة وينصرف ولما ظهر الإسلام تمسك المسلمون الأولون بالقرآن الكريم لاسيما في الآيات التي تدعو إلى الإعراض عن الدنيا ونعيمها ، والتأمل في خلق الله عز وجل ، ووجدوا حياة الزهد والبساطة والتقشف التي عاشها الرسول (ﷺ) والصحابة الطـريق الصحيح الذي يوصلهم إلى الـــجنة ، حيث كان الرسول (ﷺ) يخلو في غار حراء ويعتكف لأوقات طويلة يصلي ويتعبد حسب الشريعة الإسلامية السمحاء[×ï]، وسار على نهجه الخلفاء الراشدون في زهدهم وتهجدهم وتعبدهم واعتكافهم وذلك ليحافظوا على الأسس التي جاء بها القرآن الكريم وما رأوه عن حياة الرسول (ﷺ) [ï].

وعلى هذا الأساس تسمية القرن الأول الهجري بـ (عصر الزهد) لأن الزهد كما عرفه إحسان ظهير عبارة عن ترجيح الآخرة على الدنيا 000 وتجنب الحرام والاقتصاد في الحلال والتمتع بنعم الله بالكفاف وإشراك الآخرين في ألاء الله ونعمه وخدمة الأهل والأخوان ، فضلاً عن أن الزهد هو منهج وسلوك مبني على الكتاب والسنة النبوية ، أما التصوف فعكس ذلك هو تحريم الحلال وترك الطيبات والهروب من الزواج ومعاشرة الأهل والأخوان وتعذيب النفس بالجوع والتعري والسهر[ï].

فالقرن الأول الهجري له سمتان أساسيتان أولهما : المبالغة في الشعور بالخطيئة وثانيهما : الخوف الذي استولى على قلوب المسلمين من عقاب الله سبحانه وتعالى وعذاب الآخرة ( ) ، ولهذا لم يكن العصر الأول بحاجة إلى هذه التسمية (أي عصر الزهد) لأن أهل هذا العصر هم أهل التقوى والورع وأرباب مجاهدة النفس والإقبال على العبادة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي من الأمور التي أقرها الإسلام للحفاظ على وحدة المجتمع وسلامته من أي انحراف يخالف قواعد الشريعة الإسلامية السمحاء وبحكم اتصال المسلمين بالرسول (ﷺ) كان الصحابة

والتابعين يتسابقون بالاقتداء به ، وتجدر الإشارة إلى انه بالرغم من ميل الصحابة والتابعين إلى العبادة والتبتل والزهد وأعراضهم عن الزلل إلا أنهم لم يسموا – باسم المتصوفين – كانوا صوفيين فعلاً وان لم يكونوا كذلك اسماً ، لأنهم كانوا يعيشون لربهم لا لأنفسهم ويتميزون بالزهد والورع وملازمة العبودية والإقبال على الله بالروح والقلب في جميع الأوقات ، والقيام بجميع الفروض ونوافل العبادات والابتعاد عن المكروهات والمحرمات[Ñ] وإذا امعنا النظر في صفحات التاريخ نجد أن عصر الصحابة والتابعين لم يطلق عليه عصر التصوف إلا بع د أن ظهرت جماعة في القرن الثاني الهجري حلت محلهم وأصبح لها طرقها الخاصة بها ، أطلق عليها التصوف ، ويقال لواحدهم متصوف أو صوفي[Ò] ، وهذا ما يؤكده نيكلسون في قوله " تطور التصوف عبر طريقتين الأول : تنظيم التعاليم الدينية التي كان لها وجود بالفعل قبل التصوف والتوسع والتدقيق في معانيها . والثاني : اكتساب تعاليم ورسوم جديدة ، ويضيف بقوله ((كان التصوف في بدء أمره صورة من صور الحياة الدينية لا يأخذ بها إلا الأفراد ولا يأخذها عن هؤلاء الأفراد إلا خاصة أصحابهم ، ثم أصبح رويد رويداً حركة منظمة ومدرسة يتخرج فيها الأولياء لها قواعدها ورسومها من حيث سيرة المريدين وأحلامهم وعباداتهم وأصبح المريد يتلقى قواعد الطريق والصوفي على أستاذه ، ويخضع لإرشاد هذا الأستاذ خضوعاً أعمى 000 على أن رجال التصوف من أهل القرن الثالث الهجري لم يقنعوا بحياة الزهد والعزلة عن الناس بل تطلع المريد الذي سلك طريق القوم إلى أن يصبح شيخاً عظيماً ومرشداً مهماً))[Ó] .

وكان للمتصوفة أماكن للعزلة تشبه الأديرة عرفت بأسماء مختلفة منها المصاطب في عهد الدولة الفاطمية ، والتكايا والخوانق والصوامع ، والربط وجمعها الرباط والزوايا [Ô]، التي أسسها شيوخ هذه الطرق من خلال امتزاج المتصوفة بالطبقة الشعبية ومعايشتهم للعامة والفقراء الذين أصبحوا يرون في هؤلاء نماذج تتصف بالتقوى والصلاح فضلاً عن الدور البارز الذي لعبه المتصوفة في الجهاد وحماية الثغور الإسلامية من المستعمرين[Õ] .

شروط التصوف

من شروط التصوف الزهد في الدنيا ، والاشتغال بالعبادة والذكر ، والغنى عن الناس والقناعة ، والرضى بالقليل من الطعام والشراب واللباس ، ورعاية الفقراء ، وترك الشهوات ومجاهدة النفس والورع ، وقلة النوم (أي النوم عند الغلبة) والكلام عند الضرورة ، وجمع الأطعمة والمراقبة والوحشة من الخلق والغربة ولقاء المشايخ والأكل عند الحاجة والجلوس في المساجد ، ولبس الرث والمرقع المعروفة بخرقة التصوف لأنها من الصوف ، دلالة الزهد ، وأما الفوطة (عمامة) فهم يضعونها على رؤوسهم[Ö].

إن الهدف من البعد عن العالم الدنيوي والتحكم في النفس حتى تموت القوى الحسية ، هو تطهير النفس ومحاولة السمو بها شيئاً فـــــشيئاً حتى تشبه العالم الإلهي ، فكان معظم المتصوفة يتبعون نظام المحاسبة على أعمـــالهم وأفعالـــهم [×] فهذا الحارث ابن أســـد المحاسبي (ت 243هـ/857م) من امهر رجال مدرسة بغداد ، وجاء لقبه " المحاسبي " من انه كان شديد المحاسبة لنفسه وتأثيره على الناس من حيث محاسبتهم لأنفسهم عميقاً ، إذ استمر هذا التأثير طويلاً على الرغم من الهجوم الذي تعرض له من جانب المتمسكين بالنقل ، وتتميز طريقته باحترام كبير للمنقول والبحث الدائب طلباً لكمال النفس فضلاً عن الاعتناء بالتعريفات الفلسفية الدقيقة ، ومراعاة حقوق الله الواجبة على الإنسان في أنواع الأفعال الفردية أو الاجتماعية[ÑÎ] ، ويروي لنا عبد المنعم ماجد ذلك بقوله " والغزالي يسمح باستخدام الجريدة ، بقصد المحاسبة وكتابة أعماله اليومية من حسنات وسيئات " [ÑÏ].

المبحث الثاني

نشأة التصوف في المغرب

لابد أن تنشأ جماعة متميزة من الزهاد لها طريقتها في العبادة كما يصفها ابن خلدون بقوله " لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية واصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والأعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاماً

في الصحابة والسلف ، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة " [Ñ] وهذا أن دل على شيء فإنما يدل على أن أصحاب التصوف اعتكفوا منذ البدء على العبادة والانقطاع إلى الله عز وجل والابتعاد عن ملاذة الدنيا وزينتها والإقبال على الآخرة والعمل لها ، وهذا ما نص عليه القرآن الكريم وسيرة الرسول (ﷺ) والصحابة ، فقد كانوا من أوائل الزهاد والمتصوفة يحثون الناس للدعوة إلى الكتاب والسنة يشاركونهم حياتهم ويقومون بدور فعال في توجيه المجتمع وإصلاحه ويحثون على الجد والعمل[ÑÑ].

ظهرت بدايات التصوف في المغرب قبل الانحراف من خلال العبادة والانقطاع والإقبال إلى الله سبحانه وتعالى والبكاء عند قراءة القرآن والاستماع إلى المواعظ والتي تعد من ابرز سمات الزهاد الأوائل وعلى سبيل المثال لا الحصر ، فقد أشارت المصادر التاريخية إلى البعض من هؤلاء الزهاد والعباد في بلاد المغرب العربي .

-رباح بن يزيد اللخمي المكنى بابي يزيد[Ñ٩] (ت172هـ-88م) كان رجلاً صالحاً مشتهراً بالفضل والزهد ، متعبداً ثقة مستجاب الدعوة والمنقطع إلى الله تعالى بالعبادة وقيل عنه " كان اذا دخل الشتاء أخذ في البكاء رحمة للفقراء " وكان يوصي بكتاب الله وينصح بالالتزام به . وفي رسالة إلى البهلول بن راشد يقول له " واستعن بكتاب الله عز وجل وكثرة ذكره وتلاوته فإنه الشفاء والرحمة للمؤمنين " [Ñ٩].

-عبد الخالق المعروف بالقباب المكنى بابي خالد [Ñ٩]، يقول أبو العرب كانت وفاته بعد وفاة البهلول بن راشد بسنتين فالبهلول مات سنة (183هـ/799م) فتكون وفاته سنة (185هـ/801م) وكان من المجتهدين في العبادة ، ويغلب عليه الخوف ، وهو من أصحاب البهلول بن راشد [Ñ٩] قال أبو العـــرب " ما علمـــــت انه روى عنه علم غير مناقبه وفضائله " [Ñ٩].

-عبد الملك بن أبي كريمة [Ñ×] (ت204هـ/819م) كان ذا ثقة ، مستجاب الدعوة وكان مولى لإسماعيل بن عبيد تاجر الله ، كثير الرواية عن خالد بن أبي عمران ؛ كان يقوم الليل كله ، فإذا أقبل السحر جعل يدعو بصوت محزون .

-حمدون بن عبد الله العسال المكنى بابي عبد الله[ÕÎ] (ت244هـ/858م) كان احد المجتهدين في العبادة ، كثير الصدقة ، من أهل الفضل والدين والاجتهاد في العبادة ، يصلي ثلث الليل وينام ثلثه ويبكي ويدعو ثلثه .

-مطروح بن قيس المكنى بابي الخياط[ÕÏ] (ت246هـ/860م) كان فاضلاً جليلاً مشهوراً بالعبادة وغزير العباد .

-عبد الرحيم بن عبد ربه المربعي[Õ] (ت247هـ/861م) كان صالحاً ثقة زاهداً ذا تقوى وصلاح وإجابة الدعوة سمع من سحنون بن سعيد وأسد بن الفرات ، كثير التهجد طول الليل بين الركوع والسجود قال المالكي عنه " كان من أهل الزهد والاجتهاد واشتهر بالإجابة ، وكان سحنون يقصده كثيراً وقصده ابنه من بعده " [ÕÑ].

-أحمد بن معتب بن الأزهر المكنى بابي جعفر (ت277هـ/890م) كان نبيلاً فاضلاً قال عنه أبو العرب " هو الذي مات من ذكر الله " وقيل عن سبب موته " انه سمع شيئاً من أولئك القراء ، فصاح صيحة ثم خر وانبعث الزبد من فيه ، واحتمل في نعش إلى داره " [Õö]. وكانت له صلاة طويلة بالليل ، وبكاء حتى يسمع جيرانه بكاءه[Õö].

-حمدون بن مجاهد الكلبي (ت319هـ/931م وقيل 321هـ/942م) من أهل الفضل والدين والفقه والزهد والنسك والورع والعبادة ، سمع من سحنون ، ملازماً للعبادة ومشهوراً بالعلم روى عنه أهل مصر والمغرب [Õö] ، وقال عنه القاضي عياض كان إذا انصرف من المحراب يوجد موضع سجوده قد ابتل من دموعه ، لأنه كثير البكاء عند قراءة القرآن[Õö].

-إبراهيم بن الحسن بن محمد القصري المكنى بابي إسحاق (ت 334هـ/945م) من أهل العلم والقرآن والاجتهاد ، زاهد ومؤدب ، فإذا ما قرأ القرآن وصلى بكى ويشير المالكي بقوله " وكان كثير النياحة والبكاء إذا جنَّ الليل ، مستجاب الدعاء " [Õö].

-يشير بن عمروس العابد ، المكنى بأبي عمرو (لم اعثر على وفاته) كان من العابدين المنقطعين إلى العبادة[Õ×].

–حجاج بن أبي يعقوب السري [ÕÏ] (ت349هـ/960م) له كرامات وإجابات ، رحل من القيروان إلى مصر ومات بها .

وهكذا كان هؤلاء وغيرهم قد صرفوا وجوههم عن الدنيا إذا أقبلت إليهم حتى لا يشغلهم شيء من أمرها عن ذكر الله وعبادته والعمل للآخرة كما يشير ابن عامر بقوله " طبيعة التصوف نفسه وما يقوم عليه من سلوك زهدي أساسه نبذ الحياة واعتبارها عرضاً زائلا والتعديل على حياة أخرى هي اخلد وأبقى " [ÕÎ] أي اعتزال مباهج الحياة والتوجه بقلب خاشع ولسان ذاكر وأدب جم قائماً ليله وصائماً نهاره يجمع بين طهارة الجوارح وزكاة النفس لأنهم اثروا على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة[Õ].

بداية الانحراف (انحراف المتصوفة)

كما ذكرنا سابقاً بأن الدين الإسلامي أكد على الاهتمام بأمور الدنيا وتنظيمها ، كما يدعو إلى العمل للآخرة ، والى تطهير الجسم والنفس وعدم الحرص على الملذات . وأكد القرآن الكريم في محكم كتابه العزيز ذلك بـــــقوله : (وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) [ÕÑ] كما أكد بعض الصحابة والتابعين على التقشف في الحياة والزهد فيها ، وعلى مر الأيام أصبح الزهد عـــند فريق من المسلمين أسلوباً في الحياة ، ثم تطور فأصبح طريقاً إلى المعرفة ، وطريق التصوف يجمع بين الزهد والتصوف في آن واحد وهو يتطلب تصفية النفس وتزكيتها ، وقد ذكر أبو نصر السراج الطوسي بقوله إن المتصوف لا يترقى إلى مقام أعلى من مقامه إلا بعد أن يكون قد مر بالمقامات السبعة منها : التوبة ثم الورع ثم الزهد التام في خيرات الدنيا حتى الحلال الموجود منها ثم يأتي إلى الفقر ثم الصبر على المكاره والبلايا بعدها التوكل والثقة بالله وأخيراً الرضا أي تقبل العبد لكل ما يحدث متمثلاً في ذلك لإرادة الله تعالى[Õ٩] .

وهكذا بدا الراغب في سلوك طريق الصوفية وانحرافهم عن الزهد يقضي نهاره في التفكير والتعمق في العبادة والمغالاة فيها والدعاء بلسانه وإدامة الذكر لعبارات بعينها ومحاسبة النفس وإجهادها وبزيادة العبادة من صلاة وصيام وقيام في الليل والتبتل وقراءة القرآن وقلة أكل (الجوع) والامتناع عن كل ما احل الله من الطيبات ، وامتناع عن كل ما هو مباح [Õ٩] . فهذا أبو السري

واصل العابد الجمي (252هـ/866م) شيخٌ صالحٌ مجتهد في العبادة له مناقب كثيرة لم يرو العلم[ÓÖ] قال المالكي عنه " إن واصلاً أقام أربعين سنة لم يدخر شيئاً من الدنيا ، وانه ليقيم الأيام لا يطعم شيئاً ، فإذا أجهد خرج فأكل من مباقيل الأرض ، ثم عاد للصلاة " [ÓÕ] وهذا محمد بن عبد الكريم المسوحي المكنى بابي عبد الله (ت 306هـ/918م) من الزهاد كان يمكث سبعة أيام والأقل والأكثر لا يأكل طعاماً وكان يلبس الشعر وكان قوته في رمضان حبة من التين ، صام حتى اسود ، وصلى حتى اقعد وبكى حتى أعمى ، فلما حضرته الوفاة قال " وآخرين إلى أين يسلك بي " [ÓÖ] .

هذا زاهد آخر وهو يوسف بن مسرور المكنى بابي الفضل (ت 325هـ/936م) كان كثير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا تأخذه في الله لومه لائم [Ó×]. ومن زهده ذكر انه لم يكن في بيته غير كتبه وجلد صوف وركوة، وكان يقول: " إنما يريد البقاء في الدنيا من يتلذذ بالطعام والنساء والنوم، وإنا والله قد عدمت لذة الثلاث " [ÔÎ].

وكان يخبز قوته ويثرده سخناً بالزيت ، ويجعله في إناء ، ويفطر كل ليلة بشي ء منه ، وكان يسرد الطعام طول عمره ، ولقد أقام أربعين سنة ما طبخ قدراً ولا أوقد في بيته سراجاً ، وكان سبب ذلك انه رأى خادماً يعالج القدر في يوم ريح والحطب أخضر ودموعه تسيل فقال له " دعها والله لاطلعت لي قدر على نار ما بقيت في الدنيا " [ÔÏ] .

وورد عن المتعبد محمد بن نصر المكنى بابي عبد الله (ت 309هـ/921م) انه كان يختم القرآن في كل ليلة ثلاث مرات وفي بعض الليالي خمس مرات [Ô]، وهذا مبالغ فيه ومن غير المعقول أن يقوم شخص بختم القرآن في ليلة واحدة ثلاث أو خمس ختمات[ÔÑ] .

كل ما تقدم يشير إلى أن المتصوف جمع بين الزهد والتشدد والتعميق في العبادات والأذكار مع العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والأعراض عن زخرف الدنيا ومتاعها ، ومن المغالاة ما ورد في امتناع المتصوفة عن التزويج للتفرغ لعبادة الله تعالى وكما جاء به السهروردي في كتابه عوارف المعارف إذ يقول " الصوفي يتزوج لله كما يتجرد لله ، فلتجرده مقصد واوان ، ولتأهله مقصد واوان ، والصادق يعلم أوان التجرد والتأهل 000 " ويضيف بقوله "

وقد تعارضت الأخبار وتماثلت الآثار في فضيلة التجريد والتزويج وتنوع كلام رسول الله (ﷺ) في ذلك لتنوع الأحـــــوال ، فمنهم من فضيلته في التجريد ، ومـــــنهم من فضيـــلته في التأهيل 000 " [ÔÙ] .

وأضاف أبو طالب المكي (ت 386هـ/996م) قوله " فالأفضل للمريد في مثل زماننا هذا ترك التزويج إذا أمن الفتنة ، وعود العصمة ، ولم تنازعه نفسه إلى معصية ولم يترادف خواطر النساء على قلبه حتى يتشتت همه 000 " [ÔÚ] .

المبحث الثالث

المالكية في صراعهم ضد البدع

يبدو أن اهتمام بلاد المغرب بعلوم الحديث والفقه كان أكثر من الاهتمام بالعلوم الأخرى ، وذلك لحاجة المغرب خلال تلك المدة إلى مباحث فقهية دينية تنظيم شؤون البلاد اجتماعياً فوجدوا ما يحتاجه المسلم منذ صغره وما يوجهه في شؤون المدنية والقضائية ، وغيرها[ÔÛ] .

وقد تأثر المغرب العربي شأنه شأن أقاليم الدولة العربية الإسلامية الأخرى بما كان يسود الساحة من المذاهب الفقهية ، ويبدو تأثير الحجاز بمدنه مكة والمدينة والعراق وما فيهما من مقدسات إسلامية فضلاً عن علمائها المشهورين كان محط الراحلين وغاية أهل العلم من أهل المغرب الذين شرعوا بحمل علوم إمام دار الهجرة مالك بن انس وغيره من المشاهير[ÔÜ]، ومن هنا كان الحجاز والعراق مركز استقطاب لراحلين من أهل المغرب [ÔÝ] ولذلك نجد بدايات ظهور المذاهب الفقهية في بلاد المغرب ومدنه وجدت مع خط سير الراحلين في طلب العلم ، فالرحلات العلمية كانت تنتهي باتجاهين الحجاز عبر مصر التي شكت للراحلين إضافات واضحة فيما كانوا يبعثونه من العلم والاستزادة ولقاء المشايخ والمشاهير ، وكانت مدن الحجاز هي النهاية حيث الإمام مالك بن انس وتلامذته والشيوخ الآخرون[Ô×]، وبفضل الرحلات إلى الحجاز والعراق دخلت أصول للمذهبين المالكي والحنفي .

كما نلحظ تحصن أهل المغرب ضد البدع والأهواء بالمذهب المالكي وذلك لتمسكهم بالحديث النبوي وسنة الرسول (ﷺ) فقد ورد في كتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك " وأما

افريقية (أي تونس) وما وراءها (أي الجزائر والمغرب والأندلس) [Õï] فقد كان الغالب عليها في في القديم مذهب الكوفيين إلى أن دخل علي بن زياد (ت 183هـ/799م) وغيره بمذهب مالك " ولابن زياد يعود الفضل في نشر العلم في بلاد المغرب ومدنه وفي تونس خاصة وعنه حمل الكثير من التلاميذ وتفقهوا به[Õî].

وبقي هذا المذهب ينتشر إلى أن جاء سحنون بن سعيد (240هـ/854م) وبجهوده وجهود تلامذته من بعده وما خلفه من مؤلفات انتشر مذهب مالك بن أنس في المغرب[Õ].

وكانت مدرسة مالك الفقهية بالمغرب من أشهر المدارس في الدولة العربية الإسلامية وأشدها تمسكاً بالآراء الفقهية وبالنصوص الشرعية من القرآن الكريم والسنة والأعراض عن التخرج والتأويل وأعمال الرأي والتمرد السياسي وظهور الفرقة والبدع وثورات الخوارج [ÕÑ] والشيعة ، وهذه كلها أمور طبيعية لأنهم نصبوا أنفسهم مدافعين عن الإسلام ومحافظين لأصوله ومجاهدين بأنفسهم ومزكينها من كل ما تنزه عنه الرسول (ﷺ) وصحابته الكرام تزهدوا في الدنيا وملاذها حتى يكونوا قدوة للناس في كل أعمالهم وممن أشار إليهم أبو العرب عبد الله بن فروخ (ت176هـ/792م) فقيه القيروان ومن أوائل الراحلين إلى طلب العلم إلى الإمام مالك فكان الإمام يجله ويعرف فضله وكان يبغض أهل البدع[Õò].

وهذا البهلول بن راشد (ت 183هـ/799م) يروى انه " خرج ذات يوم على أصحابه وقد غطى خنصره بكفه ، فاقبل على رجل من أصحابه فاسر إليه كلاماً دون سائر أهل المجلس ، ثم انصرف الرجل نادى الله فكلمه فنحى البهلول كفه عن خنصره وجعل يقول : الحمد لله الذي لم يجعلني ابتدع في الإسلام " [Õó] وكان شديد الإنكار على أهل البدع والخلاف ولكن فقهه وعلمه قد لا يبلغان مبلغ ما عند الفقهاء من معاصريه " فهو كما يقول تلميذه سحنون " كان البهلول رجلاً صالحاً ولم يكـــــن عنده من الفقه ما عند غيره ، وإنما اقتديت بتركه السلام على أهل الأهواء " [Õô] وأما الفقيه أسد بن الفرات (ت 213هـ/828م) فكان مشهوراً بالفضل والدين ولم يكن فيه شيء من البدع بل كان معادياً لأصحابها ومقاوماً لهم ، وهناك إشارات في طبقات أبو العرب في تفسيره لآيات من القرآن الكريم يقول فيه : ((ويح أهل البدع ، هلكت أهوالكم ،

يزعمون أن الله عز وجل خلــــق كلاماً يقول ذلك الكلام مخلوق أنا الله لا اله إلا أنا)) وكان يقول : ((القرآن كلام الله عز وجل ليس بمخلوق)) ويبدع من يقول غير ذلك[ÕĢ] .

وكان أحمد بن أبي محرز (ت 221هـ/ 835م) مناجياً لأهل البدع والأهواء غيوراً على الشريعة[ÕĢ] ، وموسى بن معاوية الصمادحي (ت225هـ/839م) وكان عالماً بالحديث والفقه سبقاً بالثأر لأهل البدع والأهواء[Õ×] .

ومحمد بن عبد الله بن أبي حسان اليحصبي (ت227هـ/841م) كان غاية في الفقه بمذهب مالك قوياً في المناظرة ذاباً على السنة شديداً على أهل البدع[Öî].

وكان عون بن يوسف الخزاعي (ت 239هـ/ 853م) مدافعاً عن السنة شديداً على أهل البدع[Öï]، وقد انتهت جهود هؤلاء العلماء في الفقه إلى عالم المغرب الفقيه البارع ، الورع ، الصادق المشهورة بصرامته للحق ، وزهده في الدنيا ، وتخشينه في الملبس والمطعم ، وسماحته إلى عالم المغرب سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي (ت 240هـ/854م) فقد وصفته المصادر بأنه فرق خلق أهل البدع وشرد أهل الأهواء من الصفرية والأباظية الصوفية ، إذ كانت لهم قبلها حلقات بالمسجد يتناظرون فيها [Ö]. وربما يلجأ بعضهم إلى الإعراب عن حيرته وإعجابه في انتشار البدع وظهور أصحابها إلى البكاء مثلما فعل أبو زكريا الهرقلي (لم اعثر على وفاته) عندما غاب يوماً عن صلاة المغرب ، ولما سئل عن ذلك قال " سمعت اليوم من يذكر بعض كلام المعتزلة ، فخرجت إلى الشعراء – الغابات – أبكي على الإسلام " [ÖÑ].

ويمكن أن نشير إلى أسباب مقاومة علماء السنة المغاربة لكل البدع كما ساقها إبراهيم التهامي بقوله :

أولها : أن أهل المغرب كانوا يقاومون كل فكر منحرف عن منهج أهل السنة مهما كان انحرافه ، لا يفرقون بين احد منهم . وثانيهما : هو محاولة فرض آرائهم هذه على الناس وحملهم عليها بالقوة ، ولو اكتفوا بضلالهم وانحرافهم في أنفسهم لكان الأمر هيناً . ولكن عندما يفرض على الناس ويصبح هو المذهب الرسمي ومذهب الحق وما دونه هو الباطل[ÖĢ] .

مقاومة علماء المغرب للتصوف

يشير احمد أمين بقوله : ((كان العداء بين الفقهاء والمتصوفة إذ غالى الفقهاء في أعمال الظاهر وغالى المتصوفة في أعمال الباطن ، فالفقهاء ينظرون إلى المتصوفة نظرة شذوذ وانحراف عن دين الحق ، وكذلك نظر المتصوفة إلى الفقهاء)) [ÖÙ] فإن علماء المغرب كانوا يترصدون لأهل البدع من الأدعياء والمريدين والملبسين ، ولكل من رسم له طريقاً للانحراف من العبادة ، فمع ظهور هذا الاتجاه إلى الوجود نجد أن غيرة علماء المغرب للإسلام وبغضهم الشديد لكل من يحاول أن ينحرف بالمفاهيم الإسلامية السمحاء ، فضلاً عن أن مقاومتهم لم تكن موجهة نحو الزهد والانقطاع للعبادة ، وإنما كانت نحو الانحرافات والبدع التي رافقت دخول هذا الاتجاه ، واختلطت وامتزجت بالزهد ، فتلوثت وكدرت صفاءه ، فجاءت مقاومة هؤلاء العلماء لتزيل هذا التلوث والتكدر الذي أصاب الزهد لتعيد له نقاءه وصفاءه[ÖÙ].

لقد ظهر عدد من علماء المغرب في هذه المرحلة لدحض كل الاتجاهات والعقائد المنحرفة والمنافية لتعاليم القرآن والسنة النبوية ، ومنهم يحيى بن عمر بن يوسف الكناني الأندلسي المكنى بابي زكريا (ت289هـ/901م) أصله من الأندلس ، سكن القيروان وسوسة وعداده في الأفريقيتين يقول القاضي عياض عنه [ÖÙ]، انه كان مقاوماً لأهل البدع " وحكي انه مر على محلة قوم ، يكبرون أيام العشر ، فنهاهم وقال : هي بدعة " له الكثير من المؤلفات منها كتاب الرد على الشكوكية ، وكتاب الرد على المرجئة " [ÖÙ] .

وإمام المالكية ابن أبى زيد القيرواني ، المكنى بابي محمد (ت 386هـ/ 996م) [Ö×] كان معاصراً لخلـــــفاء الدولـــة العبيدية حتى انتقال مركـــــز حكمهم من المهدية إلى القاهرة سنة (362هـ/972م) ، فضلاً عن كونه معاصراً لأمراء الصنهاجيين من بني زيري الذين خلفهم العبيديون على افريقية نيابة عنهم[Î×] .

ولاشك أن هذا العهد كان مشبعاً بالصراعات الدامية في المجال الفكري والعقائدي ، فكانت الشيعة من العبيديين تسعى إلى بسط نفوذها وسيطرتها ونشر معتقدها بالقوة والإرهاب والقتل أو المساومة بالمال والمناصب على الطرف الآخر ، وكان أهل السنة لاسيما علمائها يمثلون

المقاومة والتنفير عنهم ، وإعلان الجهاد ومن ثم قتالهم وتكفيرهم والمجاهدة بمعاداتهم والمناظرة والمواجهة العلمية فهذا الفقيه ابن أبي زيد يجعل داره مركزاً لعلماء المالكية لمواجهة الدعوة الشيعية (٦٦) وقد أرسل عبد الله المعروف بالمحتال صاحب القيروان في طلب هؤلاء العلماء المالكية ليدخلهم في دعوته ومنهم أبو سعيد بن أخي هشام ، أبو محمد عبد الله بن إسحاق المعروف بابن التبان (ت 371هـ/981م) وأبو القاسم بن شبلون (ت391هـ/1001م) وأبو محمد بن أبي زيد (ت 386هـ/ 996م) وأبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري (ت403هـ/1013م) فاجتمعوا في مسجد اللجام ، واتفقوا على السير إليه " فقال لهم ابن التبان أنا امضي إليه وأكفيكم مؤونة الاجتماع به ، ويكون كل واحد في داره ، وأبيع روحي من الله دونكم ولأنكم إن أتي عليكم ، وقع على الإسلام وهن 000 فلبى الطلب ابن التبان ودخل على صاحب القيروان فقال له : ((جئتك عن قوم إيمانهم مثل الجبا ل ، اقلهم يقيناً أنا)) وبحضور صاحب القيروان بدأت المناظرات والمناقشات بين ابن التبان واثنين من دعاة الشيعة هما أبو طالب ، وأبو عبد الله حول فضائل أهل البيت من حيث تفوق علي بن أبي طالب على الخليفة أبي بكر ومن أفضل عائشة أم فاطمة ؟ وقيل إن ابن التبان قد اقنع منافسيه بما جاء به ، فقال أبو عبد الله : ((أنت شيخ المؤمنين ، ومن يوثق بك ادخل العهد وخذ البيعة فرد عليه ابن التبان وقال له ((شيخ له ستون سنة ، يعرف حلال الله وحرامه ، ويرد على اثنتين وسبعين فرقة يقال له هذا ، لو نشرت بين اثنين ، ما فارقت مذهب مالك ، فلم يعارضه ، وقال لمن حوله : ((امضو ا معه ، فخرجوا ومعـــهم سيوف مصلّته ، فمر بجماعة من الناس ممن احضر ، لأخذ الدعوة ، فوقف عليهم فقال : تثبتوا ليس بينكم وبين الله عز وجل إلا الإسلام ، فإذا فارقتموه هلكتم ، فترك عبد الله طلب بقية الشيوخ بعد ذلك المجلس)) (٦٧) .

ويبدو من ترجمة الحميدي لأحمد بن محمد بن سعدي ، المكنى بأبي عمر (ت بعد الأربعمائة) إن الحوار كان عندما التقى بابن أبي زيد يسأل فقال له هل حضرت مجالس أهل الكلام فقال له أبو محمد ولم ؟ فقال بلى حضرتهم مرتين ، ثم تركت مجالسهم ولم اعد إليها ، فقال : أما أول مجلس حضـــــرته فرأيت مجلساً قد جمع الفرق كلها من المسلمين من أهل

السنة ، والبدعة ، والكفار من المجوس ، والدهرية ، والزنادقة وغيرهم ، وكان أبو محمد يتعجب مما يشاهده فقال : ((ذهب العلماء ، وذهبت حرمه الإسلام وحقوقه ، وكيف يبيح المسلمون المناظرة بين المسلمين وبين الكفار ؟ وهذا لا يجوز أن يفعل لأهل البدع الذين هم مسلمون ويقرون بالإسلام وبمحمد (ﷺ) ، وإنما يدعى من كان على بدعه من منتحلي الإسلام إلى الرجوع إلى السنة والجماعة ، فإن رجع قُبل حنه ، وان أبى ضربت عنقه ، وأما الكفار فإنما يدعون إلى الإسلام ، فإن قبلوا كف عنه ، وان أبوا وبذلوا الجزية في موضع يجوز قبولها كف عنهم ، وقيل منهم ، وإما أن يناظروا على ما يحتج عليهم بكتابنا ، ونبينا فهذا لا يجوز فإنا لله وإنا إليه راجعون)) [×Ñ].

فمن هنا نلحظ مقاومته ومقاومة علماء المالكية لأصحاب البدع والأهواء ، ومن ثم تولت الدولة هذه المهمة القضاء على أهل البدع واستمرت المقاوم ة حتى الدولة المرابطية سنة (448هـ/1056م) وقد رد أهل السنة على هذا الاتجاه بالإنكار على أصحابه بشتى الوسائل إذ يشير التهامي إلى نوعين من أنواع المقاومة ، النوع الأول : مقاومة علماء المغرب للانحرافات التي دخلت ، النوع الثاني : مقاومة الأشخاص الذين كان لهم دور في نشر هذه الانحرافات[×Ò] .

كما ورد في مقاومة علماء المغرب عندما اتخذ الزهاد يوما في أيام الأسبوع هو السبت يلتقون فيه ويعقدون حلقات الذكر وقراءة القرآن وإنشاد أشعار الزهد والرقائق في أحد المساجد المعروف بمسجد السبت [×Ó] وكان لمحمد بن يوسف بن معدان بن سليمان الأصبهاني (ت284هـ/897م) أشعار جيدة في الزهد والرقائق [×Ô] ، فإذا ما استمعها المتعبدون في المسجد وانشرحت صدورهم ونفوسهم إليها ، فينفض اللقاء وهم محزونون نادمون ، ويرى الفقيه يحيى بن عمر أن اجتماع الناس بمسجد السبت بدعة كبيرة كونه ناصراً للسنة منكراً للبدع [×Õ] وهذا تأكيد على إنكاره لذلك يقول (يا قوم هذا القرآن يتلى ، والأحاديث النبوية تقرأ ولا متعظ ويسمع بيت من الشعر فيبكى هذا عجب) [×Ö].

وهكذا لم تقف الاتجاهات الصوفية المنافية للقرآن الكريم والسنة عند حد بل تطورت تطوراً خطيراً جعلتهم يرفعون أصواتهم في الذكر وإنشاد الأشعار والرقائق حتى اقترنت بالرقص والسماع وما يحدث بعد ذلك من الوجد والإغماء فضلاً عن الانبساط في الأكل والشراب ، حتى أصبحت هذه الأمور دأب الصوفية وسنة متبعة [××]. مما جعلت العلماء يجتمعون على الإنكار عليهم ورميهم بالبدعة الضلالية[îîî]، أما النوع الثاني من المقاومة فهو مقاومة الأشخاص .

الخاتمة:اتجاه آخر اهتم الناس به ألا وهي الكرامات بالغوا فيها وتجاوز حدود الشريعة الإسلامية السمحاء ، حتـــى قالوا فيها إن رؤية الله حقيقة مما دفع العلماء إلى الرد عليها وإبطالها ، كالفقيه ابن أبي زيد القيرواني إذ رد وأنكر على كل مؤلفات أبي القاسم عبد الرحمن بن محمد البكري (ت 380هـ/990م) في كتاب اسماه (الاستظهار في الرد على الفكرية) وكتاب آخر سماه (الكشف والتلبيس) [îîî] وقد أثار هذان المؤلفان غضب المتصوفة واخذوا يشنعون عليه بحجة انه ينـــكر الكرامات ،والذي أنكروه هو رؤية الله عز وجل حقيقة [îî]، وهذا أمر طبيعي ، فأهل السنة جميعاً يذكرون ذلك لأنه مخالف للشريعة والسنة النبوية وأقوال السلف .

وهكذا استمرت مقاومة علماء المغرب للاتجاه الصوفي حتى وصلت ذروتها في عهد الدولة المرابطية إذ اتخذت شكلاً مغايراً تميز بالتشدد والحزم والعنف في بعض الأحيان الأمر الذي جعل العامة تقبل على كتاب الصوفية كما يشير التهامي بقوله كما يقال (كل ممنوع مرغوب) [ïîÑ].

وعلى كل حال فقد كان موقف العلماء وإزاء هذه الدعوات أقوى من موقف الدولة لأنهم كانوا في موقفهم متصدين من وازع ديني وشرعي بحت .

أما الدولة فكانت تنطلق من مواقف سياسية ، وقد أخذت مقاومة علماء المغرب لهذه الدعوة أنماطا وأشـــكالا متعددة ومختلفة فتارة تكون المقاومة في شكل اعتزال لكل ما هو له صلة بالدعوة ، وتارة تأخذ شكل الجدل فتصبح معارك جدلية عنيفة بين أهل السنة وبين أصحاب الدعوة يقودها كل من الفريقين من أهل العلم والشجاعة ، وأخذت المقاومة في بعض الأحيان تأخذ طابع التسليح بحيث حرص أهل السنة العامة على حمل السلاح ضد أهل البدع [ïîÒ]،

فضلاً عن ذلك فقد كان القتل والتعذيب والتنكيل والإباحية والشذوذ من أسمى السمات التي حكم بها هؤلاء أصحاب البدع أمثال العبيدي[ïîó].

لقد اتبع علماء السنة أساليب عديدة لمقاومة هذه البدع ، وهي المقاطعة الجماعية لنظام الحكم في المغرب والتي تمثلت في مقاطعة قضاة الدولة وعمالها ورفض تسليم الضرائب لها[ïîô]، فمنهم من اتخذ العزلة والاختفاء عن أعين بني عبيد وعدم حضور صلاة الجمعة بالقيروان إذ يشير ابن عذاري إلى ذلك بقوله : (فتعطلت بذلك الجمعة دهراً) ويضيف أن عذاري منهم من كان يقول سراً (اللهم اشهد اللهم أشهد ثم ينصرف ، فيصلي ظهراً أربعاً) [ïîõ] ومن أوسع أساليب المقاومة هي المقاومة الجدلية التي قام بها علماء المغرب حيث شملت المساجلات العلمية والمناظرات العقائدية ضد بني عبيد [ïîö] فضلاً عن حمل السلاح والخروج لقتالهم فمثلاً جبلة بن حمود الصوفي (299هـ/911م) الذي ترك سكن الرباط ونزل القيروان حيث قال (وكنا نحرس عدواً بيننا وبينه البحر والآن حل هذا العدو ساحتنا وهذا اشد علينا من ذلك) وقال (جهاد هؤلاء أفضل من جهاد أهل الشرك) [ïî×] وعرف عنه شدته على أهل البدع ، لا يداري فيهم أحد ، ولم يكن أحد أكثر مجاهدة من الروافض وجماعتهم[ïïî] ، وكان أبو القاسم الحسن بن مفرج (ت309هـ/921م) من أوائل من خرج على الشيعة ومات شهيداً صلبه عبيد الله المهدي مع رجل يدعى أبو عبد الله السدري الذي كان من العباد والزهاد[ïïï] .

الخاتمة :

نود أن نستعرض بعض النتائج والاستنتاجات التي توصلنا إليها في بحثنا هذا ولعل أبرزها:

- أن لفظ الصوفية ، لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة الأولى الهجرية وإنما اشتهر بعد ذلك
- التصوف منذ بدايته نشأ باتخاذ الزهد في الدنيا وزينتها والإقبال على الطاعات والاستعداد للآخرة والعمل لها .
- اتسم القرن الأول بالزهــد كونهم أهل تقوى والورع وأرباب مجاهدة النفس والإقبال على العبادة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي من الأمور التي أقرها الإسلام للحفاظ على وحدة المجتمع وسلامته من أي انحراف وبحكم اتصالهم بالرسول (ﷺ) .

- بعدها بدأت الصوفية بالانحراف بالزهد عن معناه الحقيقي شيئاً فشيئاً 000 بدا الانحراف أولاً بالتعميق في العبادة وإجهاد النفس بكثرة العبادة من صلاة وصيام وقراءة القرآن وقلة أكل وامتناع عن الطيبات والامتناع عن كل مباح.
- لما كان غاية أهل العلم من أهل المغرب الذين شرعوا بحمل علوم الإمام مالك بن انس وغيره من المشاهير – وبفضل الراحلين إلى الحجاز والعراق دخلت أصول المذهبين المالكي والحنفي للساحة المغربية .
- إن مقاومة علماء المغرب كانت موجهة بشكل خاص نحو الاتجاهات والعقائد المنحرفة والمنافية لتعاليم القرآن والسنة النبوية فضلاً عن مقاومته للدعوة الفاطمية وأصحابها.

حاولنا في هذا البحث رسم صورة عن الصوفيون والتصوف في المغرب العربي كونه أروع نواحي الفكر الإسلامي بل الحضارة الإسلامية 000 إذ أن التصوف المغربي كان له الأثر الكبير في توجيه العامة وتلوين جميع مرافق حياتهم .

هوامش البحث

(‌آ) أبو القاسم ، عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك ابن طلحة القشيري ، الرسالة القشيرية، (دار التربية ، د.ت) ص215-217 .

( ) عبد الرحمن بن محمد الحضري ، مقدمة ابن خلدون ، (دار البيان د.ت) 329 .

(Ñ) بعيد الله ، عبد العزيز ، معطيات الحضارة المغربية (الرباط : 1963) ، ص 126 ؛ عيسى ، عبد القادر ، حقائق عن التصوف (الرمادي : 1992) ، ص 17 ؛ المراكبي ، محمود ، عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة ، (مصر:1996) ص 15 .

(Ò) مصطفى بن عبد الله " كشف الظنون عن أساليب الكنى والفنون (اسطنبول 1941) أعيد طبعه بالاوفست (بغداد : د.ت) ج414/1 .

(Ó) دانق ، (بالفارسية دانخ) وهو يعني عموماً " سدساً " وهو خصوصاً كوحدة وزن ونقد = 1 دينار فتقال 6منظر فالترهنتس ، المكاييل والأوزان الإسلامية ، ترجمة د. كامل العسلي (عمان ، 1970) منشورات الجامعة الأوربية ، ص 29 .

(Ô) الطوسي ، أبو نصر عبد الله بن علي السراج ، اللمع ، نشره ، ارنولد نيلكسون (ليدن : 1914) ص 42 ؛ السهروردي ، شهاب الدين أبى حفص عمر بن محمد بن عبد الله البغدادي ، عوارف المعارف ، ضبطه وصححه محمد عبد العزيز الخالدي ، ط 1 (بيروت : 1999) ص 43 .

(Õ) الأصبهاني ، أبو نعيم ، حلية الأولياءبالصوفي،الأصفياء (بيروت : د.ت) ج134/2 .

(*) أبو هاشم الكوفي (ت 150هـ) أول من دعا بالصوفي ، ولم يتسم احد قبله بهذا الاسم . محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية ج31/2.

(Ö) سورةنصر السراج الطوسي ، اللمع ، ص 42 ؛ السهروردي ، عوارف المعارف ، ص 43 .

(×) ابن سعد ، محمد ، الطبقات الكبرى (بيروت : د.ت) ج80/4 .

(ÏÎ) سورة التوبة ، آية 33 .

(ÏÏ) محمد، أبو بكر، التعرف لمذهب أهل التصوف ، (دار الكتب العلمية ، بيروت : 1400) ص 20-21 ؛ ظهير ، إحسان الهي ، المنشأ والمصادر ، (لاهور باكستان ، 1987) ، ص7-30 .

(Ï) اللمع ، ص 41 ؛ وينظر ، السهروردي ، عوارف المعارف ، ص 41 ؛ ابن تيميه ، تقي الدين ، الصـــوفية والفقراء ، حققه وعلق عليه محمد عبد الله السمان (سلسلة الثقافة الإسلامية ، القاهرة : 1960) ص 9 و 25 .

(ÏÑ) عوارف المعارف ، ص 41-42 .

(ÏÒ) أبو نصر السراج الطوسي ، اللمع ، ص 42 و 46 ؛ السهروردي ، عوارف المعارف ، ص 43 ؛ النقشبندي ، أمين علاء الدين ، ما هو التصوف ، ترجمة محمد شريف احمد ، تقديم عبد الكريم المدرس (بغداد : 1969) ص 28 ؛ السامرائي ، خليل إبراهيم ، دراسات

في تاريخ الفكر العربي (بغداد : 1983) ص 277 ؛ علوش ، مصطفى ، التصوف في الميزان ، (القاهرة : د.ت) ص37 .

(ÏÓ) أبو نصر السراج الطوسي ، اللمع ، ص 203 .

(ÏÔ) سكاكيني ، وداود ، التصوف نهجد وتعبد وفناء ، مجلة العربي ، العدد الرابع (الكويت : 1959) ص 132-134 .

(ÏÕ) مختصراوي ، عبد اللطيف ، محاضرات في تاريخ العرب والإسلام ، ص 225 ؛ اوليري ، الفكر العربي ، ص 159 ؛ السامرائي ، دراسات في الفكر العربي ، ص 279 .

(ÏÖ) أبو الفرج عبد الرحـــمن بن الجوزي البغدادي ، تلبيس إبليس ، (القاهرة : 1988) ص162 .

(×Ï) مختصر سيرة ابن هشام ، عبد السلام هارون سنة 1982 ، مؤسسة الرسالة الكونية ، ص 73 .

(Ï) التصوفلئي ، دراسات ، ص 279-280 ، وينظر الرفاعي ، احمد البرهان المؤيد التصوف الإسلامي الجامع بين الشريعة والحقيقة ، قدم له وخرج آياته وأحاديثه محمد عمر ريحاوي ، راجعة الشيخ بن الدين علاوي (حلب : 2001) ص 9 .

(Ï) التصوف المنشأ والمصادر ، ص 6 و7 .

( ) جولدزيهر ، نقلاً عن نيكولسون ، في التصوف الإسلامي وتاريخه نقلها إلى العربية أبو العلا عفيفي (القاهرة : 1969) ص 2 ؛ ابن عامر ، توفيق ، الصوفية والعقيدة الجبرية ، عدد منشور في مجلة حوليات الجامعة التونسية العدد 18 (75-88) .

(Ñ) اماجد،ر ، توفيق الصوفية والعقيدة الجبرية ، بحث منشور في مجلة حوليات الجامعة التونسية الـــعدد 18 (75-88) ؛ عيسى ، عبد القادر ، حقائق عن التصوف (ط 5 ، الرمادي : 1992) ص 13 وما بعدها ؛ الزوبي ، ممدوح ، الطرق الصوفية ، ظروف المنشأة وطبيعة الدور (دمشق : 2004) ص 22 .

(Ò) ماجد ، عبد المنعم ، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، ط 4 (القاهرة : 1978) ص184 .

(Ó) في التصوف الإسلامي ، نقله إلى العربية ، وعلق عليه أبو العلاء عفيفي (القاهرة : 1969) ص 19 .

(Ô) ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص 185 و 186 .

(Õ) المالكي ، أبو بكر عبـــد الله بن محمد ، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية ، تحقيق بشير البكوش ، مراجعة محمد العروس (بيروت : 1981). وا) السلمـإنية ، تحقيق حسين موسى ، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة : 1951) ج431/1 ، وما بعدها ، ج190/2-191 و 435 ؛ الجميلي ، الدولة الاتابكية في الموصل بعد عماد الدين زنكي (541-631هـ) دار النهضة العربية (بيروت : 1971) ص 277 ، بعيد الله ، معطيات ، ص 44 .

(Ö) السلمي ، ابن عبد الرحمن السلمي (ت412هـ) ، المقدمة في التصوف ، وحقيقته ، تحقيق وتعليق حسين أمين ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب (بغداد : 1984) ص 64و 65 ؛ ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص 184 .

(×) المحاسبيعم ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، 184 .

(ÑÎ) المحاسبي ، الرعاية لحقوق الله ، تحقيق عبد القادر احمد عطا ، ط 2 ، (القاهرة : 1970) ص 105 .

(ÑÏ) مقدمة الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، ص 184 .

(Ñ) مقدمة ، ص 334 .

(ÑÑ) ابن عامر ، الصوفية والعقـــيدة الجبرية ، ص 76 ، وينظر التهامي ، جهود علماء المغرب ،ص 374 .

(ÑQ) المالكيرب ، محمد بن احمد بن تميم القيرواني ، طبقات علماء افريقية وتونس ، تقديم وتحقيق علي الشابي ، ونعيم حسد الباقي (تونس : 1968) ص 118-126 . وينظر المالكي ، رياض النفوس ، ج1/ 300-312 .

(ÑQ) المالكي ، رياض النفوس ، ج306/1 .

(ÑQ) طبقات العرب ، طبقات ، ص 140-144 .

(ÑQ) طبقات ، ص 142 .

(ÑQ) أبوات ، ص140 .

(Ñ×) أبو العرب ، طبقات ، ص 215 ؛ المالكي ، رياض النفوس ، ج1/ 323 .

(ÒÎ) المالكـــــي 10و 411 ؛ الدباغ ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، تصحيح وتعليق إبراهيم شيوخ (القاهرة : 1968) ج108-106/2 .

(ÒÏ) المالكـــي ، رياض النفوس ، ج1/ 408-410 ؛ الدباغ ، معالم الإيمان ، ج109/2-111 .

(Ò) طبقات العرب ، طـــبقات ، ص 197 ؛ المالكي ، رياض النفوس ، ج 43/1 ؛ القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، ج193/1 .

(ÒÑ) رياض النفوس ، ج433/1 .

(ÒQ) طبقات ، ص 138 .

(ÒQ) ترتيبكي ، رياض النفوس ، ج 1 ، 470-472 ؛ الدباغ ، معالم الإيمان ، ج 177/2-184 .

(ÒQ) المالكي ، رياض النفوس ، ج 2 /203-204 ؛ القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، ج147/5 وما بعدها .

(ÒQ) ترتيب المدارك ، ج5 /147 .

(ÒQ) المالكي، رياض النفوس، ج2 /316-319 ؛ الدباغ ، معالم الإيمان ، ج39/3-41 .

(Ò×) المالكي ، رياض النفوس ، ج1، 418-419 .

(ÓÎ) الدباغ ، معالم الإيمان ، ج3 / 61-63 .

(ÓÏ) توفيق ، الصوفية والعقيدة الجبرية ، ص 79 .

(Ó) النقشبندي ، ما هو التصوف ، ص 28 .

(ÓÑ) سورة القصص ، 77 .

(ÓÒ) اللمع ، تحققي عبد الحليم محمد وطه سرور (القاهرة ، 1960) ط 2، ص68-80 .

(ÓÓ) التهامي ، جهود علماء المغرب ، ص 382-383 .

(ÓÔ) رياض النفوس ،ج431/1 ؛ عياض ، ترتيب المدارك ، ج98/4 .

(ÓÕ) المالكي ، رياض النفوس ، ج414/1-415 ؛ الدباغ ، معالم الإيمان ، ج2 /335 .

(ÓÖ) المالكي ، رياض النفوس ، ج1/ 431 ؛ وينظر عياض ، ترتيب المدارك ،ج198/4 .

(Ó×) المالكي ، رياض النفوس ، ج 234/2 ؛ عياض ، ترتيب المدارك، ج 143/5-146 ؛ الدباغ ، معالم الإيمان ، ج3 / 12-16 .

(ÔÎ) المالكي ، رياض النفوس ، ج235/2 ؛ عياض ، ترتيب المدارك ، ج146/5 .

(ÔÏ) المالكي ، رياض النفوس ، ج2، 234 ؛ الدباغ ، معالم الإيمان ، ج16/3 .

(Ô) الدباغ ، معالم الإيمان ، 351/2-353 .

(ÔÑ) التهامي ، جهود علماء المغرب ، ص 388 .

(ÔÒ) ص 98 و 99 .

(ÔÓ) محمد بن علي بن عطية الحارثي ، قوت القلوب في معاملة المحبوب ، ط 1 ، (شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر : 1961) ج2 /490 .

(ÔÔ) أمين ، احمد ، ظهر الإسلام ، ط 3 (القاهرة : 1962) ج2/ 297 ؛ بونار ، رابح ، المغرب العربي ، تاريخه وثقافته (الجزائر : 1981) ط2، ص 70 .

(ÔÕ) مطلوب ، ناطق صالح ، الرحلات العلمية إلى العراق ، بحث مشروع موسوعة العراق الحضارية (جامعة الموصل) درجة 15 .

(ÔÖ) المقدسي ، محمد بن احمد بن أبي البناء ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ليدن : 1906) ص 236-237 ؛ ينظر ابن خلدون ، المقدمة ، ص 450 ؛ المجذوب ، عبد العزيز ، الصراع الذهبي بافريقية إلى قيام الدولة الجزائرية ، (تونس : 2008) دار سحنون ، ص 50 .

(Ô×) الحيدري ، عمر ، الجذور الأولى للمذهب المالكي في المغرب ، بحث منشور في مجلة دعوة الحق (الرباط : 1989) العدد 373 ، ص 178-180 .

(ÕÎ) القاضي عياض ، ج1/ 25 .

(ÕÏ) القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، ج 1 /326-329 ؛ وللمزيد ابن زياد ، موطأ مالك قطعه من رواية ابن زياد ، تحقيق وتقديم الشيخ محمد الشاذلي ، (بيروت : 1982).

(Õ) القاضي عياض ، تدريب المدارك ، ج592/2 .

(ÕÑ) مقدمة طبقات أبو العرب ، ص 13 و 14 .

(ÕÒ) طبقات ، ص 107-111 ؛ المالكي ، رياض النفوس ، ج 176/1-187 ؛ القاضي عياض ، تدريب المدارك ، ج1 / 339 . وما بعدها .

(ÕÓ) أبو العرب ، صفاته ، ص 126-128 ؛ المالكي ، رياض النفوس ، ج199/1 .

(ÕÔ) القاضي عياض ، تدريب المدارك ، ج330/1-331 .

(ÕÕ) للمزيد ، طبقات ، ص 163 وما بعدها ، الخشني ، طبقات ، ص 235 .

(ÕÖ) أبو العرب ، طبقات ، ص 137 و 168 .

(Õ×) أبو العرب ، طبقات ، ص 190 ، المالكي ، رياض النفوس ، ج1/ 276-284 .

(ÖÎ) أبو العرب طبقات ، ص 157 ؛ المالكي ، ج1 ، ص84 .

(ÖÏ) أبو العرب ، طبقات ، ص188-189 ؛ لمالكي ، ج1 / 385-387 .

(Ö) أبو العرب ، طبقات ، ص 184-187 ؛ المالكي ، رياض النفوس ، ج 1 ، 345 ، وما بعدها ؛ ابن ماكولا ، الكمال ، ج2 /266 ؛ القاضي عياض ، تدريب المدارك ، ج 585/2 وما بعدها ، الدباغ ، ج77/2-85 .

(ÕÑ) أبو العالمدارك، ت ، ص 73 و 74 ؛ الـــــ مالكي ، رياض النفوس ، ج 1 / 322 ؛ المجذوب ، عبد العزيز ، الصـــــراع المذهبي بافريقية إلى قيام الدولة الزيرية (بيروت : 2008) ص52 .

(ÕÒ) جهود علماء المغرب ، ص 207 .

(ÕÓ) ظهر الإسلام ، ج2 / 60 .

(ÕÔ) التهامي ، جهود علماء المغرب ، ص 407-408 .

(ÕÕ) ترتيب المدارك ، ج234/3 ؛ وينظر المالكي ، رياض النفوس ، ج484/1 .

(ÕÖ) عبداضي عياض ، ج236/3-238 .

(Õ×) القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، ج492/4-495 و 519 .

(Î×) عبد الحميد ، سعد زغلول ، تاريخ المغرب العربي ، ج3 /292 وما بعدها .

(Ï×) التهامي ، جهود علماء المغرب ، ص 327و 408 .

(×) القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، ج521/4-523 .

(Ñ×) جذوة المقتبس ، ص 112-113 .

(Ò×) التهامي ، جهود علماء المغرب ، ص 408-409 .

(Ó×) مسجد الدمّنه الذي أسسه في أول القرن الثالث الهجري أبو محمد الأنصاري ، وقد سمي بمسجد السبت لأنه كان له ميعاد يجتمع فيه العبّاد كل سبت . ينظر النيّال ، محمد البهلي ، الجذور التاريخية للتصوف الإسلامي (تونس : 19656) ص 8 .

(Ô×) الأصبهاني ، أبي نعيم الأصبهاني ، ذكر أخبار اصبهان ، ج 171/2-173 ؛ وحلية الأولياء ، ج10 /389-390 .

(Õ×) المالكي ، ج495/1-496 .

(Ö×) الدباغ ، معالم ، ج232/2 .

(××) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص 415 .

(ÎÎ) التهامي ، جهود علماء المغرب ، ص 420 .

(ÏÎÏ) القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، ج2/494-495 .

(ÏÎ) التهامي ، جهود علماء المغرب ، ص 424 .

(ÏÎÑ) جهود علماء المغرب ، ص 430 .

(ÏÎÒ) التهامي ، جهود علماء المغرب ، ص 208 .

(ÏÎÓ) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج 185/1 ؛ وينظر مدلول ، محمد صالح ، السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية وبلاد المغرب (الجزائر : 1983) ص141 .

(ÏÎÔ) مقدمة المالكي ، رياض النفوس ، حسين يونس ، ص 17 .

(ÏÎÕ) البيان المغرب ، ج1، ص 277 .

(ÏÎÖ) التهامي ، جهود علماء المغرب ، ص 225 .

(×ÎÏ) المالكي ، رياض النفوس ، ج 2/ 75 ، القاضي عياض ، ترتيب المدارك ،ج 371/4-379 ؛ الدباغ ، معالم الإيمان ، ج2/270-280 .

(ÏÏÏ) المالكي ، رياض النفوس ، ج 2، 75 ، القاضي عياض ، ترتيب المدارك ،ج 371/4-379 ؛ الدباغ ، معالم الإيمان ، ج2/270-280 .

(ÏÏÏ) المالكي ، رياض النفوس ، ج2/166-175 ؛ الدباغ ، معالم الإيمان ، ج2/253 .